رِحلة البحثِ عَنِ الحقيقة: من «النَّبيّ» إلى «عبد الله»

الدكتور ربيعة أبي فاضل(٥)

كَرم وجبران: تَناغُمٌ وَتَفاهُم

نما جيل أنطون كرم(١) بالكلمة والمغامرة. ففي زمانٍ لاغطٍ، خابطٍ، بابليّ، تَهاوتْ فيه القِيَم، ومَزّقتِ الأُمّةَ الخيبات، لجأ أهل التنَّح

---

(٥) أستاذ في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجامعة اللبنانيّة. ومقاله هذا أُلقِيَ محاضرة ضمن نشاطات «الحركة الثقافيّة - أنطلياس»، لمناسبة تكريم الأديب أنطون غطّاس كرم، في ٧ آذار/مارس ١٩٩٩.

(١) وُلِدَ أنطون كرم في جزّين سنة ١٩٢١ (١٢ نيسان) (وقيل ٨ نيسان ١٩١٩). درس في جامعة القدّيس يوسف، بعد عهد الصِّبا في بلدته. إلتحق بالجامعة الأميركيّة، حاز بكالوريوس في الآداب، درجة شرف، ١٩٤٥، وحاز الماجستير العام ١٩٤٧. إلتحق بجامعة السوربون، فحصل على دكتوراه دولة العام ١٩٥٩. درّس اللغة العربيّة وآدابها، بين ١٩٣٦ و١٩٤٩، في الكلّيّة العامّة للجامعة الأميركيّة. تسلّم رئاسة الدائرة العربيّة، حتّى ١٩٥٦، في الجامعة اللبنانيّة، وعمل أستاذًا للآداب والفكر العربيّ. ١٩٥٦ انتقل إلى الأميركيّة، وظلّ فيها حتّى وفاته، (١٩٧١-١٩٧٤) رئيسًا لدائرتها. ١٩٦٠-١٩٦٣، عميد كلّيّة الآداب في الجامعة اللبنانيّة. ١٩٦٧-١٩٦٨، أستاذ زائر في جامعة كولومبيا، الولايات المتّحدة. ١٩٧٤-١٩٧٥، أستاذ زائر في جامعة بركلي، كاليفورنيا. عشرة مؤلّفات في النقد الأدبيّ، والفكر التأمّليّ، والبحث التاريخيّ، والخلق الفنّيّ. عشرات الأبحاث والرسائل والمقالات في الموسوعات العالميّة، والمجلّات العلميّة والأدبيّة. وعدد من الترجمات بالفرنسيّة والإنكليزيّة. أجيال من الطلّاب تتلمذت عليه، وشعاره: «إن لم تُعلِّمْ بحُبّ فلا أنت تُعطي ولا الطالب يستجيب». «أحاول أن أُلطِّف ما أمكنني من عذاب الآخرين. أنا في أشدّ عذابي عندما يكثره

والإبداع، والتحرّر، إلى الكلمة يحلمون بالقيامة[2]، يُغامرون، يتطلّعون الجوهر، يَبنون على الحقّ[3]. ومثّل الأدبُ الجبرانيّ، في وجدانهم، أبعادًا إنسانيّة، وروحيّة، وَفَنّيّة لم يُدرِكها مَقامُ الأدب، من قبلُ، فأدهشتهم نَزَعاتُ التحرّر، والتغيّر، والتسامي، والانفتاح، في النتاج الجبرانيّ[4].

لَفتَ جبرانُ نظرَ كرم بِتَجْديده، فَدَرسَه، وحَفِظَ الكثيرَ من مقالاته، ولا سيّما «لكُم لغتكم ولي لُغَتي» التي تُجسِّدُ روحَ الخروجِ على التقليد والمحافظة. وقيلَ إنّه نَسخَ «الأجنحة المكسَّرة» على دفترٍ ما زالَ في مكتبته حتّى اليوم، وهو بَعْدُ في الرّابعةَ عشرةَ أو الخامسةَ عشرةَ[5].

قال كرم: «قرأناه في عهد الصِّبا فما استنفدناه... سَرى دمُه في خواطِرِنا فصارَ مِنّا... حاضرٌ في أشكال عواطفنا، حاضرٌ في مناطقِ خيالنا حتّى المطلقِ والخارق. حاضرٌ في تمرُّدِه ورَفْضِه ونداءِ الحرّيّة. حاضرٌ في حُبِّه، وفي تَصوُّفِه لِفَنّه لأنَّ الفنَّ هو الحياة. كان أُمّةً في أديب، خلالَ لَحْظَةٍ من لَحَظاتِ وجودِها المُعاصِر»[6].

تَرجمَ كرم كتابَ النّبيّ، العام ١٩٥٥، وهو مخطوطٌ بالفرنسيّة. وفي هذا العام عينِه، وبَعْدَ وفاة أُمّه بسنة، شرع يُنْشِئُ عبدَالله، حتّى تاريخِ تَحْبير الفاتحة، ١٩٦٨، في المهجرِ الأميركيّ. وفي العام ١٩٥٦، كَتبَ جبران تأثُراتُه وتأثيراتُه، في النّدوة اللّبنانيّة. ثمّ أنجزَ أطروحةً عنه، العام ١٩٥٨، وَصَدَرت، العام ١٩٨١، عن «دار النهار»، بعنوان: *La vie et l'œuvre littéraire de G.K.G.*

=المعذَّبون». توفّي في ١٢ حزيران ١٩٧٩. راجع بشأن هذه المعلومات دراسة ميشال سماده، «كتاب عبدالله، بحث في أبعاده الحضاريّة والجماليّة»، كلّيّة التربية، ١٩٧٣ – ١٩٧٤، إشراف د. أنطون كرم. ودراسة «أنطون غطّاس كرم الناقد»، لنجمة سليم حجّار، كلّيّة التربية II، ١٩٨٠، إشراف د. ربى سابا.

(٢) أنطون كرم، عبدالله، دار المكشوف، ط ١، ١٩٦٩، ص ٧ و١١٠.

(٣) خليل رامز سركيس، مصير، منشورات الندوة اللبنانيّة، بيروت، ١٩٦٥، ص ٧٢.

(٤) راجع كلام كرم على أكبر أدباء النهضة الحديثة عندنا، النهار، (مقابلة: صُبحي حبشي)، أيلول ١٩٧٤.

(٥) نجمة حجّار، كرم الناقد، ص ٣.

(٦) مجلّة دراسات، كلّيّة التربية، العدد ١، ١٩٧٤، ص ٢٧–٢٨.

وَكَتَبَ أنطون كرم بحثًا عن جبران في الأنسيكلوبيديا الإسلاميّة، العام ١٩٦٢، كما أَلقى عنه مُحاضرات في جامعة القاهرة، العام ١٩٦٤. وَكَتَبَ العام ١٩٧٠، «الصُّورة الشِّعريّة في أدب جبران»، في المِهْرجان العالميّ الذي عُقد في الجامعة الأميركيّة، ببيروت. وقد نظرَ كرم إلى ظاهرة الجبرانيّة على أنّها الأكثرُ تَنوُّعًا وَغِنًى، في النَّهضة، والأكثرُ أصالةً وَحُضورًا[٧].

وَكما اجتهدَ جبران ليكونَ جارَ الحقّ، في النَّبيّ، وَيَرغبَ في أن يعيشَ مثله، وأتقنَ توقيعَ الإيقاع والكلمات، وإحكامَ الطَّريقةِ الخاصّة المميَّزة[٨]، هكذا أَسقطَ كرم ربعَ عبدالله، وكَتَبَهُ بأعلى الانتباه. وحَمَّلَ الاستعارة مَدْلولَها الأدقَّ والأوسع[٩].

إنّنا لفي شِبْهِ يَقين أنّ بينَ روحِ جبران، وروحِ كرم، تَناغمًا عميقًا، وتفاهُمًا مُخْلِقًا، في مَجالَيْ الاختبار والتَّعبير، والنَّظرة إلى الآخر، والحياة، والوجود. مِنْ هُنا، أهمِّيَّةُ الكشف عن أوجه التلاقي والتباين، بين «المصطفى» و«عبدالله»، ولو بِشَكْلٍ مُجْمَلٍ، من خِلالِ رِحْلَتَيهما فكرًا وروحًا.

أ - أَوجهُ التلاقي

١ - إنّ عنوانَي الكتابَيْن مُتَّصلان عضويًّا بالتراث الدينيّ والصّوفيّ العربيّ. فالمُصطفى الجبرانيّ لم يَتَصَفَّ، وَيصلْ إلى أنْ يكونَ فجرَ زمانه، إلّا بعد تكرير العودات، والانتصار على دار الغربة والذّات.

---

(٧) من المفيد العودة إلى دراسة الأستاذ ميشال سعادة: «كتاب عبدالله»، م.س. ص ٢٥، ٥٥. فهي أفضل الدّراسات عن «عبدالله» حتّى اليوم.

(٨) بالغت هاسكل حين قالت إنّه أمضى سبعًا وثلاثين سنةً يكتب النّبيّ. فهو بدأه العام ١٩١٢ وأنجزه العام ١٩١٩، وظهرَ العام ١٩٢٣.
راجع: توفيق صايغ، أضواء جديدة على جبران، الدار الشرقيّة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦، ص ٢٢٨.
أيضًا: نبيّ الحبيب، الأهليّة للنشر، ج ٢، ١٩٧٤، ص ١٦٤.

(٩) دراسة ميشال سعادة، م.س. ص ٤٧: «Une tentative mathématique de la métaphore».

وهكذا يُحاولُ عبدٌ منكسرٌ يَشعرُ بثقل الاغتراب (ص ٨) أنْ يَمتلِكَ رؤيا القيامة المتفشّرة، بشقّه الثاني - الله. فالأمرُ الصَّعبُ المُستَصعبُ لا يَحمِلُه إلّا عبدٌ امْتَحَنَ اللهُ قلبَه للإيمان، على ما قالَ الإمام عليّ، عادًّا مُحمّدًا عبدَ الله الصَّنيّ[١٠].

٢ - إنَّ مفهوم الخلاص في التّجربتَيْن لا يتمّ بدون انفتاح على المطلق: النّبيّ المتحرّر يفتح آفاق التّحرُّر بالمحبّة أمام الأورفليّين (وأورفَليس فيها جَذْرٌ من أورفيوس الذي تقمّصه عبدالله في بعضِ لحظاته: «وانحنتِ الأدغالُ لألفاظه العذارى وزقزقَ ماءُ الكنبج» (ص ٢١)). وَوَجَدْنا عبدَ الله يَستجيبُ لدعوة الجنّيّة البيضاء إلى الرّحيل (ص ٤٩) ويُسلّمها أمره، في خاتمة الكتاب، انتظارًا للفرح المُتكامل الذي لا يزول (ص ١٣١).

٣ - نُلاحظُ استمرارَ رَمْزَيِ اللّيل والظُّلمة، والنُّور والشّمس، على مدى مساحة الكتابة. كما نَرى الطّائرَ رمزًا عند كِلَيْهما، ولا سيّما في المقدّمة. فالمصطفى انطلق سروره انطلاق الطائر السجين من سجنه[١١]، وعبدالله حدّثنا عن الطائر الأزرق (ص ٣٤) الذي جعله يسلك الصدق سبيلًا إلى الجميل، ويَخرج على التّرسسة[١٢] واليأس. إنّهما اللّونانِ: الأزرقُ والأبيض يُكوّنانِ عالم الداخلِ لدى كرم، وهو عالم طفليّ بهيّ.

٤ - ومع الانفتاح على المُطلَق بطريق التجرُّد، والتصوُّف، والتَّرك، وَجَدْنا إلحاحًا عند المصطفى وعبدالله على أنْ يَنْضَجَ الإنسانُ في فكره، وحرّيّته، واستقلاله، كي يُدركَ اللهَ ويتّحد به. قال جبران: «إنَّ كُلًّا منكم يجبُ أن يَستقلّ بمعرفته لله، وبفهمه للعالم الأرضيّ»[١٣]. وعلى مثاله، «نَقَضَ عبدالله الاتّباعَ، أينما وقع في تَوافِهِ الأحزاب،

---

(١٠) نهج البلاغة، ت. محمّد إبراهيم، دار الجيل، ج ٢، بيروت ١٩٨٨، ص ٦٥.
(١١) النّبيّ، ت.م. نعيمة، مؤسّسة نوفل ١٩٧٨، ص ١٣.
(١٢) عبدالله، ص ٣١، ٣٧.
(١٣) النّبيّ، م.س. ص ٦٩.

وتُرّهات المذاهب. لم يَسَعْهُ إطارُ الطُّقوس، فخرجَ مِنْ أُرثوذكسيّة المتبدة، ثُمَّ اشتَهى الإيمان»[١٤].

٥ - ومَنْ يتعمَّقْ في إيقاع رحلتيهما يجدْ في نصَّيهما شَبهًا من حيث الشّخصيّات:

الجبّة البيضاء - الروح الكلّي

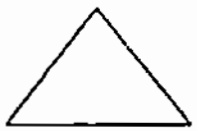

عبد الله

أنطونيو ريتزا الأقرب إلى روح عبد الله، والعائد، مع تجاربه، من زمان الوثنيّة إلى أزمة الصّناعة.

البحر - الذات الكبرى

المصطفى - نَبيُّ الله

السيطرا: فيها جذرٌ من ميترا الإلهة المعروفة، وهي الأقربُ إلى روح المُصْطفى. وميترا في الإيرانيّة، قبلَ الزرادشتيّة، إلهُ النُّور، والحقّ، والعدل، ورمزُ الأملِ بالخلاص[١٥].

---

(١٤) عبد الله، ص ١٠، ١١.

(١٥) ٥ يشبه ميترا بروميثوس من حيث عقد حلف مع الشّمس لخير النّاس، وخلاصهم من بؤسهم وشقائهم. فميترا هو إله الخصب والخلاص كما هو المسيح. (راجع: أنيس فريحة، دراسات في التاريخ، دار النّهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢١، ٢٢). وذُكِرَ أنَّ ميترا المجوسيّ يهدي النّاس إلى جمالات الأرض، يدعوهم إلى عبادة النار المحيية، الماء المنعش، الهواء والنور، وسائر العناصر الطّيبة ومصادر العيش. (روز غريّب، تمهيد في النقد الحديث، دار المكشوف، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٨٣).

٥ وقد عبّر بول ڤاليري عن أزمة الأزمنة التي وصل إليها أنطونيو ريتزا، فوصف عصرنا الصّناعيّ، قال:

«Il a mené l'homme où il ne savait point aller» (Paul Valéry, *Regards sur le monde actuel*, Gallimard, 1945, p. 189)

وهذا الأمر ليس ببعيد عن مثلّث العبد الصّالح (الخضر)، وموسى، وفَتاه (رفيقُ رحلته) في سورة «الكهف» القرآنيّة، وفي البحث عَنِ العلم والحقيقة، كما يُشبهُ الرّحلة الغلغامشيّة، حيث المثلّثُ: غلغامش - أوتو - نبشتيم، مالكُ سرّ الخلود، وأورْشنابي، الملاّح رفيقُ الرّحلة. وفي معظم الرحلات يَعنفُ الامتحانُ الذي يُوصلُ إلى القداسة، فلا قداسةَ بدون عبورٍ، وَشَفاءٍ، وانتظار، وَقَلَق، ومُفاجآت مُدْهشة وَمُؤلمة! ويبدو أنّ قلّةَ الصّبر حَجَبَتْ موسى عنِ المعرفةِ الدينيّة، وأنّ قِلّةَ الحَذَر حَجبتْ غلغامش عَنِ الاحتفاظ بسرّ الخلود، أمّا عبد الله فأوصلَتْه الرّحلةُ إلى الإيمان الواعي، لأنّه أمُّ العقل وأبوه. وتحرَّرَ النّبيُّ، المختارُ الحبيب، مِنَ الرّحلات إلّا رِحْلةَ الرّوح العائدِ المُنقذ:

- سفينةُ المصطفى أقبلتْ، ناداه البحر، ولا بُدَّ مِنَ الرّحيلِ المَعْجونِ بعَجين الحنين والعودة[١٦].
- «عبدُالله» أصغى إلى صوتٍ ناداه في سرّه. هاتفٌ مُضيءٌ، نِداءٌ من أعماق الكون دَعاهُ إلى الخروج من ذاتِه القَفْراء ليتمتّعَ بنعمةِ السّعي الخصيب إلى سعادة الإنسان. فَتَدَفّقَتِ العافيةُ فيه، وخرجَ من سجنه[١٧]، واتّحدَ بالإنسانيّة المعذّبة، وحُلمِها الصاعد في مدّ التاريخ[١٨].

٦ - ويأتي الكلامُ في النّبيّ على التحليقِ عاليًا، والعلوِّ الشّاهق، والهُيَامِ بالأعالي التي لا تُدرَكُ[١٩]. هكذا تقاذفتِ الدُّروبُ عبدالله من شاهقٍ إلى شاهق، فتجنّحت روحه، وبات هو الجناحَ وفَضاءَ الحرّيّة. ضاقَتْ به الجدران، وراحَ حنينُه إلى المدى يتجدّد، قال: «أستمسكتْ أشواقُنا بخلاءٍ متعدّد في أُرجوحةِ المجهول الذي لا يُدرَكُ»[٢٠].

---

(١٦) النّبيّ، ص ١٤، ١٥، ١٩.
(١٧) عبدالله، ص ٩، ١٢، ٣٤.
(١٨) م.ن. ص ٤٣.
(١٩) النّبيّ، ص ١٣، ١٠١، ١٠٢.
(٢٠) عبدالله، ص ١٨، ٢٢، ٣٠، ٣٢.

٧- وَيَبدو هَمُّ النَّبيّ وعبدالله، مَعًا، كائنًا في التغلُّب على الثُّنائيّة أو التناقُض في الذات، سَعيًا إلى الكمال والانسجام. شدَّدَ المصطفى على التطهُّر أمام الشمس، والذّوبان فيها، ومعرفة سرِّ الوجود الأعمق، لتخطّي تمزُّقات الذّات الصُّغرى[٢١]. أمّا عبدالله، فبعدَ أن ضاعت ذاته في فاجع الثنائيّة، وبعد أن انكسرت وحدته، وعذّبته التناقضات، عاد ليفكّكَ السرّ، وقد وَسِعتْ روحُه الكون[٢٢]، قال: «خيرٌ لك أن تُسامَ الجَحيمَ بِنَفْسٍ طَهَّرَتْها نارُ الاضطهاد، مِنْ أنْ تعيشَ مزدوجًا»[٢٣].

٨- وَكَما الحُبُّ يُطَهِّرُ في النّبيّ، وَيُحوِّلُ الكائنَ الأصغرَ إلى خُبزٍ مقدَّسٍ لوليمة الله السرّيّة[٢٤]، هكذا حدَّث عبدالله عَنِ «المحبّة الغامرة» المطهِّرة، مُتَسائلًا: «أيعودُ الحُبُّ الكُلّيُّ فيصبحَ كلُّ ما يَصنعُ الإنسانُ ترنيمةً للفرح تملأُ العمر الخاطف، الضّائع في أرضنا الممزّقة، الضّائعة؟»[٢٥] وقال: «أيّ طعم للعيش إن لم يُرْفَعْ قربانًا لِسَعادةِ الإنسان»[٢٦]. فبين «خبز» جبران و«قربان» كرم، وَجْدٌ صُوفيٌّ مَسيحيٌّ يُذكِّر بقول تيار دي شاردن:

«La foi au Christ universel est d'une fécondité inépuisable en morale et en mystique»[٢٧]

٩- وعلى الرُّغم مِنَ الكلام على الطُّرقِ المقفرة في «النّبيّ»[٢٨]، وعلى مواكب البشر المحشودة كالنَّمل جاهدةً مَكْدودةً، عانيةً، حاملةً صُلبانها وَنُعوشها في «عبدالله»[٢٩]، فإنَّ لدى الإنسان، في مَفهوم

(٢١) النّبيّ، ص ١٤، ١٦، ١٧.
(٢٢) عبدالله، ص ٨، ٢١، ٣٦.
(٢٣) م.ن. ص ٣٦.
(٢٤) النّبيّ، ص ٢٢.
(٢٥) عبدالله، ص ١٢، ٣٧.
(٢٦) م.ن. ص ٣٦.
(٢٧) Pierre Teilhard de Chardin: *Mon univers*, Ed. du Seuil, Paris, 1965, p. 61.
(٢٨) النّبيّ، ص ٩٤.
(٢٩) عبدالله، ص ٨١.

النّبيّ، لَقِبًا رُوحيًّا يَنمو أبدًا في اتّجاه الحياة الكلّيّة[٣٠]، وهكذا، وَجَدَ «عبدالله» في «الجنّيّة البيضاء» تَحرُّرًا من النَّرجسيّة والعنف، وطريقًا فوق طريقه، لأنّها روحُ الخلاص[٣١]، ووَجدَ في الأساطير والرّموز عودةً إلى البراءات الأوّل، والفطرة، إذ لم يَكُنْ هَجْرٌ بينَ الإنسانِ والله[٣٢].

١٠- وثمّة كآبةٌ تجمعُ بينَ البطلين: «فالنّبيّ» - المصطفى يُصابُ بالكآبة، وهو يَرحلُ، ويتَساقطُ الدَّمعُ على صدره[٣٣]. وقد طالما طغى على ابتسام عبدالله طيفٌ من الكآبة[٣٤].

١١- وأقام المصطفى بينهم كالبُحيرةِ بينَ الجبال[٣٥]، هكذا عادَ عبدالله إلى بحيرة نفسه، وَهبَّ فيه شَميمُ الموج[٣٦]، وساقهُ الرّحيلُ على شَعْر الجنّيّة إلى الجُزر الفردوسيّة، ليحيا ربيعَه الدائم. إنّها الثّورةُ عينُها التي استشعَرَها المُصطفى، عندما رأى سفينته مقبلة، لِتُعيده إلى جزيرة أحلامه، وعندما راح يتأمّلُ البحرَ الأمّ، كما تأمّله عبدالله: «ورأى (عبدالله) البحرَ في واحدة (يد) ورأى النّورَ في واحدة. وَهبَّ فيه شميمُ الموج، وما تمخَّضَ فيه من معاني الأبد»[٣٧]. إنّ الماء، دائمًا، رمزٌ للتجدُّد، والتّطهير، والتّحويل من حال إلى حال، فحيثما حلّت البحيرةُ، حلّت الأعجوبة.

١٢- ويُحدّثُ المصطفى عن ليل الذّات التزمة ونهار الذّات الإلهيّة (ص ٥٣-٥٤)، أو الإنسانِ الشّامخ (ص ٩٧)، أو الذّاتِ الجبّارة (ص ٧٨). كذلك يُحدّثُ عبدُالله عَنِ الفرديّةِ الصُّغرى التي تَصبو إلى

---

(٣٠) النّبيّ، ص ٩٩، ١٠٠.
(٣١) عبدالله، ص ٤٩.
(٣٢) Mircea Eliade, *Mythes, rêves et mystères*, Idée, Gallimard, Paris, 1957 p. 22, 80
(٣٣) النّبيّ، ص ١٨.
(٣٤) عبدالله، ص ٢٣.
(٣٥) النّبيّ، ص ٩٦.
(٣٦) عبدالله، ص ٤٣، ٤٦.
(٣٧) م.ن. ص ٤٥، ٤٦.

الذاتِ الجَماعيَّة الكُبرى، وأنّه هو والإنسانيّةُ وحدةٌ مَرْصوصةٌ، يَحْمِلُ صليبَها (٤٥). وقالَ كيفَ خرجَ من ظلمة نفسه، وليلِ أحشائه (ص ٢٦، و٣٠) ومن ليلِ مَأساته (٣٤) ومِنْ بُستانه المطفأة نجومه (ص ٣٤) إلى الجنّة البيضاء المنوّرة، فعاشَ كالغائبِ عَنْ شَخْصِه (ص ٤٤).

١٣- وكَمَا رأى المصطفى إلى الموت والحياة واحدًا، وإلى النُّضج والارتقاء اللّذين يَنْتظِران الكائن، بعدَ جهاده الروحيّ، وإلى عودته الثّانية كي يأخذ بأيدي التّائهين إلى مزيد من التّحرُّر[٣٨]، كذلك انسلخَ عبدالله عَنْ لذاذاتِ دُنْياه ليعودَ إلى فجرِ الطُّفولة، ويَرفعَ التُّرابَ إلى مستوى الرُّؤى، وَيعتصمَ بالعِفَّة مُواجهًا غربةَ الموت الباردة، ووَحْدتَه الرَّهيبة[٣٩]. سَحَقَتْهُ فكرةُ الإبقاءِ فَقَرَّرَ قَبْرَ الموتِ بالكلمة[٤٠]، لِكَوْنِ الكلمة، وَحْدَها، تجعلُ الموتَ سَبيلًا إلى النَّجاة (ص ١٢٤).

١٤- وتَرى عندهما كلامًا على الحرِّيَّة والبُعدِ عَنْ تكرير التجسُّد، من ناحية «النَّبيّ» (ص ٥٩-٦٠)، والصُّعودِ إلى جبل الربِّ من ناحية «عبدالله» (ص ٧٥)، كما تَرى محاولتَيهما المصالحة مع الحياة، واللجوء إلى الصّلاة. فالصّلاةُ تمدُّد ذات، وسَعْيٌ إلى السّلام، وخروجٌ من المأساة.

١٥- وتكلَّمَ المُصْطفى على اللَّذّة والهوى، فالهوى يَلتهمُ ذاتَه بذاته على حَدِّ ما تفعلُ النّار[٤١]. هكذا رأى عبدالله شهواتِ المُدن تَفْنى، وما يَتوهَّمُه الناسُ بقاءً يَحملُ إليهم الفناء. «كُلّما اندفع إلى البقاءِ بعضٌ، غارَ بعضٌ في الفناء»[٤٢].

---

(٣٨) النّبيّ، فصل «الموت»، ص ٩٢.
(٣٩) عبدالله، ص ١٠٧-١٠٨.
(٤٠) م.ن. ص ١٠٩-١١٠.
(٤١) النّبيّ، ص ٦٢.
(٤٢) عبدالله، ص ٥٣.

ب - بعضُ التّباين

١ - بدا المُصطفى نبيًا للهِ كما في المقدّمة، يَحملُ رسالةَ التحرير الرُّوحيّ، وهو يَعِدُ في الخاتمة بأنّه عائدٌ لخلاص الكثيرين. فهو أنهى رحلته، وحُتّم عليه أن يَترك إلى بلد الرُّوح، بعدَ الكَرازةِ في سِتّةٍ وعِشرينَ مَوْضوعًا، تُحدّدُ الطّريقَ إلى الذّات الكبرى.

أمّا عبدُ الله فلا هو نَبيٌّ، ولا هو معلّمٌ، ولا يَحملُ رسالةً من فوق، بل هو خَبِرَ طبيعةَ الحياة، ومَسيرةَ البشريّة، ومُعاناةَ أمّته وإنسانيا، وحاولَ أن يُصغي إلى الرُّوح الكونيّة، لكنّه عاد بحقيقتين:

- إنّ الكائنات تَسلّى عَنِ المأساة والدائراتُ دوائر.
- وإنّه بِجُزْمه المُتناهي لم يَستطعْ أنْ يَضُمَّ شمولَ الكلّيّةِ المطلقة، فَنَبَرَ ليسَ مِنْ جَماعة وَحْدةِ الوجود (ص ١٢٢، ١٢٩). مِنْ هنا حزنُه الوجوديّ والمتجسِّدُ والمُدَمّى، في حينِ لم يَتَغَنَّ المصطفى سوى بالفرح الكونيّ، مُحاولًا خَلْقَ الانسجام في أهلِ أورفليس، وتقليم من الجبل إلى المعرفة والتّسامي. ومن هنا أيضًا عودةُ عبدِالله إلى مَصْدَرِ الخلاص الذي عادت إليه أُمُّه وهو «يسوع المصْلوب» (ص ١٣١)، وعاد إليه أبوه، تلميذُ عينِ ورقة، سنديانةِ الإيمان والإنسان، في نهضة الوطن. «عين ورقة الطّاهرة، المتطوّرة في سماءِ الشّرق والتي حافظت على الإنسان، ودفعت بالحضارة العربيّة إلى المستوى العالميّ، محاربةً الجيل بالعلم»[٤٣]. قالت أُمّ عبدالله، وهي على فراش الموت، بعد أن أدنَتْ من شَفَتَيها يسوعَ المصلوب: «يا عزائي، ويا مُخَلِّصي» (ص ١٣١-١٣٢).

٢ - إذا كانت رحلةُ المصطفى بوذيّةً، ثيوصوفيّة، غنوصيّة، فإنّ رحلةَ عبدالله تمّت في تاريخ الحضارة، وتاريخ مُعاناة الإنسان. فَهِيَ واقعيّة، من طبيعتها الكآبة، ومن طموحاتها العودة إلى المسيح القائل: «تعالوا إليّ جميعًا أيُّها المرهَقون المُثقَلون وأنا أُريحكم»

(٤٣) الخوري ناصر الجميّل، مدرسة عين ورقة، بيروت، ١٩٨٩، ص ٤٢.

(متى ١١/٢٨). فلم يَجِدْ كرم خلاصه، في نهاية الكتاب، بعد فوضى بابل، وباطل أباطيل الدّنيا، والكُتب، سوى في سَلام المسيح، وفي التّماهي به، عندما رَغِبَ في أن يُصْلَبَ، ويكلَّلَ بالشّوك لينتدبَ الإنسانيّة المعذّبة. وذلك في فصل من فصول عبد الله المُسْقَطة[٤٤]. قال في خاتمة «عبد الله»:

«ها أنا ذا ألوذُ بكَ في هذا الحَلَكِ الأخير

بَعْدَ أنْ أُفرِغَ من معناه كلَّ شيء

أعتصمُ بمعناكَ فرارًا مِنَ الفراغ...

طَهِّرني بجوعي وحَنيني إليك،

اغسلني بنورِ الرَّجاء فتعودَ إليَّ حلاوةُ

الانتظار وربيعُ المفاجأة.

بكَ تَتَحَقَّقُ قيامتي، وَيَتوقَّدُ إيماني بالإنسان»[٤٥]

ومَعْنى ذلك أنّ ما عدّه خلاصًا بالمسيح بقيَ عند جبران خَلاصًا بوحدة الوجود: «يا إلهنا الذي هو ذاتُنا المجنَّحة». (ص ٨٠)

٣- يَعودُ عبد الله الهاربُ من ذاته، وسجنه، ثانيةً، إلى عزلته، حيث يرتقبُ عودة الجنّيّة، وَحَيثُ البراءةُ، والبلبل، والزّهر، والكرامة، والورد النّديّ. بالعزلة، والسّكينة استراحَ من معاناة الرّحلة. فهو ليس نَوْستيًا سوى في تعطّشه إلى العلم، لكنّه نأى عَنِ اللذّات، وَسِحْرِ الشّيطان، وأوهام العجائب والمُعجزات. إنّه أقربُ إلى غلغامش العائدِ بَعْدَ خسارة عشبة الخلود، واقعيًّا، يَسْعى بالصَّبْر، إلى تَحْصين عالمه ومَدينة أهله. وانتهى أقربَ إلى الشّخصانيّة المؤمنة الواعية منه إلى فهم أبعاد الخارج، والدُّخول في غموضِ الماوراء!

---

(٤٤) النهار، ١١ نيسان ١٩٩٢ (فصل أُسقط من عبد الله).
(٤٥) عبد الله، ص ١٣٢، ١٣٣.

٤ - زِدْ أنَّ الكآبة الماورائيّة التي رافقت عبد الله، لم نَجِدْ أثرًا لها عند المُصطفى، وأنّ لَهجة المعلّميّة، والوعظ، في مَقام شرح رحلةِ الإنسان ما بين الحياة والموت، وطَريق التحرّر، في «النّبيّ»، كانت لَهجةَ السّيرة الذّاتيّة، الفكريّة، التي حَوّلت الرّاويةَ، والبطلَ، والرّحّالة، والمغامرَ، والمَصْلوبَ، والمُزْمِل عبد الله، إلى واحدٍ، هو الشّاعرُ، الحالم، المطوّحُ في دُنيا الحضارة، ودُنيا الفكر، ودُنيا الرّوح، والسّاعي بالتخيُّل إلى الارتقاء[٤٦]. لقد كان عبد الله كائنًا من لحم ودم يُحَدِّثنا بلغة آلامنا، في حين أرادنا المصطفى ثيوصوفيّين حُلوليّين، نُنافس المسيحَ في مراتب الألوهيّة. كان كرم واقعًا يترقّى إلى المثال، وكان جبران مثالًا شبهَ مُستَحيل! لذلك جاءت كلُّ تجربة كرم وكأنّها تجاربنا الرّوحيّة الحميمة، وجاءت أزَماتُه لِتكشِفَ عن أزماتنا. وجاءَتْ تجاربُ جبران، وفيها من الهندوسيّة ووَحدة الوجود شَوبٌ كثير!

٥ - إنّ وحدةَ الأديان بقيتْ مرتبطة بالشّكل ولم تمسّ الجوهرَ في عبد الله. فملامحُ العنوان، وبعضُ الصّيغ، والشّواهد، إسلاميّة. وتكادُ شخصيّة أنطونيو ريتزا الغربيّة، تكونُ ثيوصوفيّة، بوذيّة، كَرَّرت عوداتها. أمّا جوهرُ الروايةِ - القصيدةِ - السّيرةِ - الرّحلةِ، الرّسالة، فبقيَ مسيحيًّا، ولا سيّما في النّظرة إلى الخلاص. قال لتلاميذه (النّهار ١٢ حزيران ١٩٧٩): «إيماني بقوّة الروح لا حدّ له. أنا لا أهابُ ما اعتبَرَهُ الآخَرون قضيّةً كُبرى، ومَأساةً عُظمى. إنّه مقدّمة لوُجودٍ أكمل مِنَ الوجود الذي نَحْنُ فيه». لَقَدِ التقى الشّابان اللّذان

(٤٦) قال بشلار: «Imaginer c'est s'absenter, c'est s'élancer vers une vie nouvelle. L'imagination est un voyage et chaque poète nous doit donc son invitation au voyage. Les images poétiques sont des opérations de l'esprit humain dans la mesure où elles nous allègent, où elles nous soulèvent, où elles nous élèvent; elles sont essentiellement aériennes. La vie aérienne est la vie réelle; au contraire, la vie terrestre est une vie imaginaire, une vie fugitive et lointaine». G. Bachelard. *L'air et les songes*, lib. José Corti, 13ème éd. Paris 1982, p. 10, 52, 54

تغنّيا بروح المسيح، في آخر عبدالله، وفي آخر يسوع ابن الإنسان، لكِنّ مسيحَ عَبدِالله هو طريقُ الخلاص، في حينَ بدا مسيحُ جبران كأنَّهُ السّابقُ إلى الخلاص، واجتهدَ جبران ليلتحق به، بالتّحرُّرِ والتّرفّد، «مَسيحًا» آخر.

البيانُ والإيمان

قال المصطفى بعضَ الحقيقة التي حَصَلَ عليها، فأيّةَ حقيقة أرادَ عبدُالله أنْ يقول؟ هل قادَتْه «الطّريقُ إلى عبدالله» إلى المعرفة الكاملة؟ هَلِ انتهتْ به خبرتُه، في مَجالِ الثّقافة والحَضارة، حيثُ انتهتْ بجبران، إلى التألّه؟ يُمكنُ القول: لم يُحِلَّ كرمُ نفسَه مَحَلَّ المسيح المتجسِّد، فهو بقيَ في ظلال الحقيقةِ الإنجيليّة القائلةِ بِصَوْتِ المسيح: «أنا الطّريقُ والحقُّ والحياة، لا يَمضي أحدٌ إلى الآب إلّا بي» (يوحنّا ١٤/ ٦). لقدِ اكتشفَ ما علَّمَتْه نصوصُ «الجامعة» التّوراتيّة: «باطلُ الأباطيل»، ولجأَ إلى إيمانه، من دون أنْ يعتقد ما اعتقدَه جبران: «L'homme chair évolue vers l'homme dieu»(٤٧)

على أنّهُ أغنى هذا الإيمانَ بالبيان، تَعبَّدَ بالبيان، تَخطّى النّغمَ العاديَّ بالبيان، حاولَ بالطّلاوة والحَلاوة، والجَلالة، والنّخامة، والإتقانِ، أنْ يَرتقيَ بالإنسان. وإنَّ ذلك من أكبرِ ما تُستَمالُ به القلوب، وتَنثني إليه الأعناق، وتُزيَّنُ بِهِ المعاني(٤٨). وارتباط اللّهجة الفنّيّة العضويّ هذا، ببهاء الإيقاع، ونور الفضيلة، ومَحبّةِ الجميل، كائنٌ

---

(٤٧) Antoine G. Karam. *La vie et l'œuvre littéraire de Gibran Khalil Gibran*, Dar An-Nahar, Beyrouth, 1981, p. 247.

(٤٨) راجع: الجاحظ، البيانُ والتبيين، ت. حسن السّندوبي، القاهرة ١٩٤٧، ج ١ ص ٣١.

٥ قال كرم: «إنَّ العملَ الفنّيّ هو أسمى الأعمال الأخلاقيّة، لأنّه سعيٌ إلى تحقيق الإنسانيّة إنسانيّتها باختراع الجميل». («مدخل إلى دراسة الشعر العربيّ الحديث» من كتاب «العيد» الصادر سنة ١٩٦٧، الجامعة الأميركيّة، ص ٢١٤).

منذ أفلاطون، مرورًا بالجاحظ ومالارميه وغيرهم[٤٩]. فالكتابة النبيلة تريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، تريد الحقائق المتسامية بعيدًا من خيبات الدنيا. لذلك حمل إلينا كرم رسالة الجمال، وطريق المحبّة، وحاول أن يقضي على الوحش والخيبات في أرض الإنسان. وهو امتلك رؤيا صوفيّة، وخصبًا روحيًا قلّ نظيرهما.

لقد أفضت به تجربته الأدبيّة إلى جدٍّ ليس فيه لَعِبٌ، وصدقٍ لا يشوبه كذب. كتب فأخذ الأنفاسَ عزفُه، وجاءت شاهقتُه الشعريّة، عبدالله، أبعدَ من سيرة، وأعمق من رحلة. رَجُلٌ دقّ رأسَ الشّهوات، ولم يشرب كدرَ السّلطات، ولم يُدخِلْ في حقّه باطلَ التّكابر. خفّضَ جناحَيْه للحقّ، وأعلاهما فوقَ الباطل، وأخرجَ العقلَ من أسْرِ الهوى، فامتلأتْ مصابيحُه بالزّيت الكريم. لقد رحلَ عَنِ الدُّنيا جَسدُه مَيْتٌ وقلبُه حَيّ. أرسى على الكلمات النّدى، وبَلَّ النّثر بماءٍ جديد، بَعْدَ جُبران، وأمين نخلة، ولم يَشأْ عُلوًّا في الأرض، فضربَ أنْفَ الدُّنيا وعينَها.

اللّهُمَّ أفْسِحْ له مَفْسحًا في ظلّك، وأظِلَّ عليه بيومِكَ الأبيض، فَهُوَ مِنْ أهلِ الهُدى. واسْقِ، يا إلَهي، أرضَ لبنانَ بماءِ الكرامات، وَحَصِّنْ جزّينَ بالعافيةِ والحياة، ورُدَّ عنها رياحَ الزّمن الشّديد، والدّهرِ العنيد! إنّها أرضُ التّعايُشِ والتّفاهُم، والانفتاحِ والتّسامي[٥٠]، والكرمِ والإنسانيّة[٥١].

---

(٤٩) A. Pellissier, *Les grandes leçons de l'antiquité classique*, 2ème édition, Paris, 1885, p. 207-208.

أيضًا: جيروم غيث، أفلاطون، منشورات الجامعة اللبنانيّة، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٨٥-١٨٦-١٨٧.

أيضًا: Platon, *La République*, édition Gontier, 1963, Paris, p. 140-142-293

(٥٠) د. إلياس قطّار، «جزّين وتضارها في التاريخ»، المسرّة، آب ١٩٨٩، ص ٣٩٤.

(٥١) د. شاكر الخوري، مجمعُ المسرّات، دار لحد خاطر، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٩.